مبادئ الإلزام الخلقي عند روسو

الدكتورة منيرة محمد*

الملخص

يرمي البحث النظر في آراء روسو في كيفيات قيام مبادئ إلزام خلقي تنظم حياتنا الأخلاقية الفردية منها والجمعية بصرف النظر عن تغيير الظروف والأحوال وتبدّل الزمان والمكان. ففي عصر استهدفت فلسفته في إطارها العام سيادة فلسفة عقلية تجريبية مادية - ترفض الميتافيزيقيا والدين، وتهتم بالرياضيات والفلسفة وعلوم الطبيعة... وتثق ثقة مطلقة بالعقل البشري... - دعا روسو لعودة الجوهر الروحي إلى الحياة الأخلاقية. فرفض أن تستقى مبادئ إلزام خلقي عامة من وحي مذاهب الفلسفة في عصره وفي غيره من العصور. كما رفض قيامها من وحي الأديان أو من مضامين طقوسها وشعائرها. ورأى أن الموطن الصحيح لقيام مثل تلك المبادئ يكمن في الطبيعة، في تلك الغريزة الربانية التي حبتها الطبيعة للناس أجمعين: الضمير. وذلك دون أن يتجاهل القول بدور لابدَّ أن يقوم به النشاط العقلي في العملية الشاملة لبناء حياتنا الأخلاقية. وفي رسم ملامحها الرئيسة على المستويين الفردي والجمعي النظري والعملي. وإن اختلفت مساحة حضور ذلك الدور وكيفياته، وتباين حجم أثره وعمقه بين أحدها والآخر عاطفة كان أم عقلاً.

* قسم الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

مدخل:

شكل أمر البحث في مبادئ عامه تنظم حياتنا الأخلاقية وتوجهها_ بصرف النظر عن تغيّر الزمان والمكان و تبدل الظروف والأحوال واختلاف الشعوب والأمم _احد أهم المحاور الرئيسة التي دارت حولها المسالة الأخلاقية كلها. وقد ذهب فلاسفة الأخلاق في تصورهم للمواطن التي ينبغي أن تستقى منها تلك المبادئ مذاهب شتى. فقد أرجع بعضهم إلى المجتمع أمر الحكم فيها، وفي كل ما يلازم ذلك، أو يؤدي إليه من مسائل. وقالوا: إنَّ لكل مجتمع قواعد خاصة تحكم حياته الأخلاقية وتوجه سلوك أبنائه"[1]. وأرجع بعضهم الأمر في ذلك إلى الطبيعة" ومذهب اللذة، ومذهب المنفعة، والمذهب الرواقي". وأخذ بعضهم الآخربضرورة أن تقام الحياة الأخلاقية على مبادئ العقل ك اسبينوزا (1632-1677) وكانط (1724-1804). وقد ذهب آخرون في اتجاه آخر وقالوا: إنَّ من مقتضى الرؤية السليمة أن تستقى مبادئ الأخلاق من وحي العاطفة، ومنها أيضاً ينبغي أن تنشد مختلف القوى الأخلاقية الفاعلة في حياتنا. وتحت الإطار العام لأخلاق العاطفة هذا تندرج آراء فلاسفة كثر*. من أبرزهم

1 بدوي السيد، الأخلاق بين الفلسفةوعلم الاجتماع، دار المعارف القاهرة 1980،ط1، عام-، ص69.

* فلاسفة أخلاق العاطفة كثر. أبـــرزهم: هاتشيـــسون(1664-1746)، شافيـــستوري(1671-1713)، فولتير، هلفسيوس، هيوم(1711-1776)، روسو، آدم ســـميث، شـــوبنهور(1788_1860)، البـــرت اشفتيسير (1875_1965) . . . الخ، جميعهم يتفقون في المبدأ على ضرورة إقامـــة الأخـــلاق علـــى العاطفة، ومن معطياتها. ولكن لكل واحد منهم رؤيته الخاصة في ذلك فـــ: هاتشيسون: عـــول علـــى حاستي الجمال والخير، ورأى أن في وسع الإنسان بالاعتماد عليهما مباشرة أن يميز بين الخير والشر، وأن يحكم على شخص الفاعل ذاته وعلى نزعاته وميوله. وشافيستوري: قال بوجود حاســـة فطريـــةلا إرادية لدى كل واحد منا تدعوه إلى الإعجاب بالخيروالنبل واحتقار الشر والخبث. فولتير: رأى فـــي التسامح أرفع مثل أعلى أخلاقي. هلفسيوس: رأى أن الأصل في سلوك الإنسان يصدر عن قاعدة حب الذات. هيوم: ذهب إلى القول: إنَّ اكتساب الخير ومعرفته وطلبه يصدر عن عاطفة أخلاقيـــة خاصـــة طيبة تسمى بغريزة الإنسانية _الاستحسان_وهي لاترتكز إلى دعائم التجربة والتربية والتهـــذيب بـــل

فولتير(1694-1778)، هلفسيوس (1715-1771)، آدم سميث(1723_1790) وجان جاك روسو (1712-1778)[2].

فقد دعا روسو لعودة الجوهر الروحي إلى الحياة الأخلاقية. وبخلاف المنحى العام لفلسفة عصره التي استهدفت في إطارها العام سيادة فلسفة عقلية تجريبية. مادية - ترفض الميتافيزيقا والدين، وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجغرافية والطب والفلسفة، وتؤمن بالتغيير، وتسعى إلى التجديد في كل شيء وتثق بالعقل ثقة مطلقة، ويدور فيها التفكير حول الإنسان[3]، عمل على إقامة مذهبه الأخلاقي بالقياس إلى معطيات العاطفة: الضمير. ورأى أن إمكانية قيام مبادئ عامة تحكم سلوك البشر، وتنظم حياتهم دون اعتبار للزمان والمكان، والأحوال والتقلبات، تكمن في الطبيعة، وتتجلى في نزعاتها، وفي كل ما تنطوي عليه تلك الطبيعة من مشاعر وعواطف وأحاسيس خيرة بالفطرة، على نحو استهل به سفره التربوي إميل"الإنسان خير بالفطرة وعلى الخيرية طبعه خالق البرايا[4]. **

تنبجس من ينبوع القلب. وتمتاز أن لها أصلاً واحداً في الناس هو الطبيعة البشرية. آدم سميث: وجد في التعاطف العنصر النهائي الذي يمكن من خلاله بناء حياتنا الأخلاقية بناء جيداً . شوبنهور: يرى في الشفقة سر الأخلاق. أمَّا ألبرت اشفتيسير: فيتمحور مذهبه حول ما دعاه باسم (أخلاق توقير الحياة) التي تدعو إلى المحافظة على الحياة أياً كانت. للمزيد انظر مؤلف عبد الرحمن بدوي السابق الذكر فقرة أخلاق العاطفة، ص 272-280

2 بدوي، عبدالرحمن، الأخلاق النظرية، وكالةالمطبوعات، الكويت، ط2، 1976ص229-282

3 صبحي، أحمد، في فلسفة التاريخ، مؤسسةالثقافة، الإسكندرية، ط1، 1975. ص83

4 روسو، أميل أو التربية، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1956، ص29.

** تجدر الإشارة إلى أن روسو من أبرز فلاسفة الطبيعة البشرية(هوبس1588-1679، لوك1632-1704، روسو)، وجوهر رؤيته في ذلك يقوم على القول: إنَّ الطبيعة البشرية خيرة بالفطرة . في حين تذهب رؤية هوبس إلى القول: أنَّ الطبيعة البشرية عدوانية شريرة بالفطرة ومقولته في ذلك مشهورة(الإنسان ذئب على أخيه الإنسان). أمَّا رؤية لوك فقد توسطت هذين الرأيين القصيين.

ولتسويغ ذلك رفض روسو أن تقام تلك المبادئ من مضامين الفلسفة، أو من وحي الأديان، أومن وحي أي مصدر آخر أياً كان.

أولاً: مبادئ الإلزام الخلقي والفلسفة:

استبعد روسو إمكانية أن تستقى مبادئ إلزام خلقي من مقتضى مذاهب الفلسفة، أو من وحي تياراتها في عصره وفي غيره من العصور الأخرى، وأخذ بشدة على آراء أصحابها في هذا الشأن، ورأى أن البحث فيما انطوت عليه آراؤهم ومذاهبهم عن مبادئ عامة تحكم حياتنا الأخلاقية لا يجدي نفعاً، وهو لايكشف عن حقيقة أن ها هنا الموضع الصحيح والطبيعي لاستقراء مثل تلك المبادئ، ولقيامها في واقع الحياة فعلاً.

فقد اختلف الفلاسفة اختلافاً كبيراً عن مختلف المسائل الأخلاقية وغير الأخلاقية، ولم يتفقوا على شيء من ذلك سوى على الاختلاف. اختلفوا عن تحديد المشكلة الأساسية في الأخلاق أهي الخير أم الإلزام الخلقي. كما اختلفوا في الفضيلة، الرزيلة، الخير، الشر، القيم والأحكام الأخلاقية وعلاقتها بالبواعث والنتائج. وتساءلوا كل من منظوره عن طبائع ذلك وكيفياته. كما تساءلوا عن المبدأ أو المبادئ الأخلاقية العامة، التي يمكن أن تعدُّ بمنزلة الدعامة الأساسية لكل سلوك أخلاقي. لازم ذلك السؤال عن مصدر ذلك المبدأ أو تلك المبادئ، أو موطن قيامها، أمن العقل؟ أو من العاطفة؟ أو من المنفعة؟ أو من موطن آخر غير هذه كلها؟ الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان أمر الركون لآرائهم، والتسليم وفقاً لاتجاهاتها ومعطياتها بمبادئ إلزام أخلاقي عامة وشاملة، دقيقة ومحددة، يقطع معها الشك باليقين في صحيح المواقف أو في خطئها. وهو في ذلك يقول "شاورت الفلاسفة وتصفحت كتبهم، ودرست مختلف آرائهم في الأخلاق وفي غيرها، فوجدتهم كلهم شمخاً جازمين. اعتقاديين حتى في ارتيابهم المزعوم ووجدتهم لا يجهلون شيئاً ولايثبتون شيئاً. وإذا وزنتم براهينهم لم تجدوا عندهم منها غير ما هو صالح للهدم والتدمير، وإذا عددتم

الطرق أبصرتم اقتصار كل منهم على طريقة، لا يتفقون الأعلى الجدال. ولم يكن استماعي لهم وسيلة لخروجي من ارتيابي..[5].

ومن ذلك يعلن روسو وبشكل مبالغ فيه أن ما جناه من بحثه عن مبادئ إلزام خلقي عامة في ثنايا كتب الفلسفة. يختصره القول: إنَّ من مقتضى الضرورة والمنهج السليم أن ينظر إلى موطن آخر، تستقى منه مثل تلك المبادئ التي يجمع الناس على مضامين ما تنطوي عليه من أحكام قيمية ولا يختلفون. ويأخذون بتلك المعطيات بشكل طبيعي ولا يرفضون، وذلك دونما إكراه أو ضغط، وبعيداً عن أي تأثير لأي قوة أخرى أياً كانت إلا قوة حجتها ذاتها. وما تنطوي عليه مضامينها من مصداقية. أمَّا ذلك الموطن فهو عنده كامن لدى الإنسان ذاته، ولا يحتاج البحث عنه والنظر في معطياته إلى تلك المشقة، أو ذلك الجهد، إذ يكفي الناظر المريد في هذا أن يقف لحظة وعي وتأمل وتفكير، وأن ينظر إلى ذاته. ففي حنايا تلك الذات يوجد المرتكز القويم لمشاعر وأحاسيس صادقة يؤخذ بها، ويسترشد بهديها. وذلك بعيداً عن مجمل المعطيات الأخلاقية المتناقضة المتضاربة التي أنتجها، ولايني ينتجها ذلك الجهاز الفلسفي عبر تاريخه.

"الثمرة الأولى التي اقتطفتها من هذه التأملات هي أنني أدركت بعد الفلاسفة عن إنقاذي من شكوكي غير المجدية، وأنهم لم يصنعوا غير زيادة الريب التي تزعجني من غير أن يحلو أو أحده منها، ولذا فقد اتخذت دليلاً آخر، وقلت في نفسي: دعني أستنير بنور الباطن. فهو أقل تضليلاً لي منهم. وسأكون أقل فساداً إذا اتبعت تعليماته مما لو استسلمت لأكاذيبهم". [6]

5 روسو، المصدر نفسه، ص 479-480

6 المصدر نفسه، ص480

وضمن السياق ذاته دعا روسو بقوة إلى إحلال المشاعر المنبعثة من القلب محل المحاكمات الفلسفية اللاهوتية. وإلى أن يقام إزاء ما يزعم الفلاسفة أنها مبادئ وحقائق أخلاقية. مبادئ وحقائق أخرى، لا يحتاج التدليل على مصداقيتها، أو على ضرورة حضورها، وعلى أهميته في حياتنا الأخلاقية إلى تلك المحاكمات الفلسفية الجافة، أو إلى ذلك الجدل في الماورائيات، أو إلى غير ذلك من أساليب الفلاسفة وطرائقهم ومناهجهم. ولا يستتبع على المرء الأخذ بمعطياتها، أو الاهتداء بما توحي به أي التزام أو انتماء، أو حتى أي انتصار لأي مذهب فلسفي أو تيار، أو لأي فكرة أو عقيدة أياً كان منحاها، أخلاقية، دينية، سياسية، أو فلسفية... وذلك لأن تلك المبادئ الجديدة هي في الجوهر" حقائق يدركها القلب مباشرة ويبلغها الإنسان كاملة ودفعة واحدة، وبالإشراق المفاجئ والحدس الباطني"[7].

فالالتزامات الأخلاقية إذا لاتقوم عند روسو بالقياس إلى آراء الفلاسفة ومذاهبهم. وهي لاتقوم عنده أيضاً على أساس إرادة وهمية لكائن فوق الطبيعة افترضت الفلسفة أو غيرها حضور فعلها في حياتنا الأخلاقية، وأقامت الحجة على ضرورة ذلك الحضور.. وهي كذلك لاتقوم على أساس أي سلطة لإرادات أخرى أب، حاكم، سلطان حاول بعض الفلاسفة أو غيرهم التدليل على شرعيتها. بل من باعث أخلاقي آخر -داخلي_ يكشف فعله بالنتيجة عن أن الطبيعة لا الفلسفة قد جعلت في الإنسان ذاته ما هو أقدر من أي مصدر خارجي آخر على تنظيم بواعثه، والنظر في ما يمكن له أن يفعله، أو ينبغي عليه أن يتجه إلى فعله مراعاة للخير، والحق والفضيلة . ولغير ذلك من القيم الأخلاقية الإيجابية التي يبحث عنها، ويرمي فعلها ، كما يرمي الاستحواذ عليها". بقي علي أن أبحث عن المبادئ التي يجب أن أستنبط منها قواعد لسلوكي. وعن القواعد التي يجب أن أفرضها على نفسي لأحقق الغاية المقدرة لي

7 العوا، د. عادل، المذاهب الأخلاقية، ج1، الجامعة السورية، دمشق، ط2، 1958، ص434

على هذه الأرض. لا أستخلص هذه القواعد من مبادئ فلسفة عالية. وإنَّما أجدها في أعماق قلبي، وقد نقشتها الطبيعة بأحرف لاتمحى فما عليّ إلا أن أستشير نفسي فيما أريد أن أفعل.. أن أفضل مفتٍ هو الضمير..."[8].

وفي هذا الشأن ذهب روسو إلى القول_ مستحضراً مقولة مواطنه مونتسكيو التي مفادها أ ن القوانين والمبادئ تنبع من طبائع الأشياء[9]، ومهاجماً الفلاسفة أشد هجوم. ومؤكداً في الوقت نفسه مبدأ الفردية في الأخلاق- بأنه مهما قالت الفلسفة في الشأن الأخلاقي. فإنَّ شيئاً واحداً فقط يعرفه المرء في اتباع مذاهبها في الأمر هذا، ألا وهو أن الموطن السليم لقيام مبادئ تحكم السلوك البشري. يرجع للطبيعة، ولذلك فإنَّ من مقتضى الطبيعة هذه أن يستسلم المرء لشعوره الباطني وليس لأي معطى آخر. حاولت الفلسفة تسويغ حضور فعله في حياتنا الأخلاقية. ذلك أن الوصول إلى الحقيقة، والسعي لتبيان مواطن الخير، الحق، الفضيلة والدعوة للعمل بها. والكشف عن مواضع الشر، والخطأ، والرزيلة والدعوة للابتعاد عنها. أمر ليس في الحقيقة هو الهدف الأساسي الذي ينشده الفلاسفة، بقدر ما هو وسيلة لديهم ينطلقون منها للوصول إلى غايات مرجوة أخرى. "وحتى لو أصبح الفلاسفة في حال تمكنهم من اكتشاف الحقيقة فمن منهم يخالجه بها أدنى اهتمام. ليس بينهم من لم يؤثر– وقد عرف الحق والباطل – الكذب الذي وجده على الحقيقة التي كشفها غيره. أين هو الفيلسوف الذي يهدف في خبايا قلبه إلى مقصد آخر غير أن يعلو ذكره - حسبه أن يرتفع بين مستوى العامة، حسبه أن يمحق شهرة منافسيه، فماذا عساه أن يبغي فوق ذلك؟ المهم أن يفكر بخلاف الآخرين."[10]

8 روسو، إقرار الإيمان، ترجمة نجيب المستكاوي، دار المعارف، ط1، عام، القاهرة، ص158-159

9 -مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1954 ، ص11

10 روسو، إقرار الإيمان. ص27

ثانياً: مبادئ الإلزام الخلقي والدين:

بخلاف لما هو مألوف الأخذ به و للاعتقاد السائد إلى أيامه الذي يربط الأخلاق بالدين بوجه عام، استبعد روسو أن تستقى مبادئ الإلزام الخلقي من وحي شعائر الأديان، ومن مضامين طقوسها وآراء القائمين على شؤونها، ومما يرسمونه من سبل، ويحددون كيفيات الوفاء بمتطلباته، وما يلازم ذلك أو يلزم عنه من مسائل وأحكام. وقد ذهبت آراؤه في ذلك في منحيين، يكمل أحدهما الآخر ويتممه. عرض في المنحى الأول منها للحجج التي رأى أنها تسوغ مذهبه في القول بتعذر الربط بين مبادئ الإلزام الخلقي والدين. وقدم في المنحى الآخر – وفي مقابل ذلك – رؤيته الخاصة في الأمر ذاته.

- المنحى الأول:

وفي هذا المنحى كان روسو ابن عصر التنوير. العصر الذي أصبح فيه "العقل هو المقياس الوحيد لسائر الأشياء"[11] إذ بعين العقل الفاحصة الناقدة، نظر في مضامين طقوس الأديان وفي معطيات شعائرها. وعلى مقدمات رؤيته في ذلك رتب النتائج، وحكم بأن النظر هنا لا يكشف عن تلك القواسم المشتركة التي ينبغي لها أن تكون الروافع الحقيقية لقيام مبادئ إلزام أخلاقي جامعة شاملة للناس جميعاً بصرف النظر عن أي اعتبار لتغيّر الزمان والمكان، وتبدل الأحوال والأوضاع.

فالأديان– التي ازدهرت في العالم، - بحسب رأيه- هي من الكثرة والتنوع بما يصعب إحصاؤه. وهي تختلف في مضامينها اختلافاً كبيراً. ويحتوي كل منها على عقائد غريبة الشكل في الغالب، وإلى" قواعد أخلاق منها ما هو مخيب للآمال"[12].

---

11 ماركيوز هيربرت، العقل والثورة، تر د. فؤاد ذكريا، المؤسسة العربية ، ط2، 1979 ، ص30.

12 كريسون أندريه روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، اللجنة الدولية لترجمة الروائع المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط1، 1972، ص289_292. ، روسو حياته، فلسفته، عويدات، بيروت، ط2، 1977، ص57

الأمر الذي يطرح أسئلة كثيرة حول إمكان الربط بين مبادئ الإلزام الخلقي والدين. تتكشف الإجابة عنها عن أن الأديان بشكل عام_أديان الطبيعة، ديانة السحر ديانة اللاما، ديانة القس الكاهن.. الخ_هي لا تنظر إلى أبنائها أو مؤمنيها النظرة نفسها، وهي لا تقيم مساواة حقيقية بينهم، ومن ثمَّ فهي لا تفي بالشرط اللازم لقيام مبادئ أخلاق عامة قوامها الإنسان بما هو إنسان، والإنسان ذاته جوهرها وغايتها[13] .

ثم إن النظر في كيفيات قيام تلك الأديان وفي الأساليب التي على نحوها تبشر بمبادئها وتنشر تعاليمها. يكشف عن أن الإنسان وحياته الأخلاقية هما في ركن قصي من ذلك. وأنهما ليسا موضع ذاك الاهتمام. فقد أقيم بعضها على الخوف والضلال والبهتان، وقام بعض منها على التمايز والتفوق والاختيار، وكانت في طقوسها وتعاليمها ديانات حصرية مغلقة غير متسامحة، ولا تبشر بمشاعر المحبة والمساواة والأخوة بين البشر، بل تدعو إلى ما يقوي العداء والكراهية والبغضاء لكل من لا يدينون بها. ولا يقرون بشرائعها. ثم إنَّ بعضها الآخر هو في طقوسه وتعاليمه مثال لأنظمة ناجعة تفرض على كل بلد نمطاً واحداً لتمجيد الله بعبارات عامة. وقد ترد كلها إلى أسباب تتعلق بالجود والحكومة وعبقرية الشعب، أو إلى أي سبب محلي آخر يجعل أحدها مفضلاً على الآخر بحسب الزمان والمكان ويجعل أمر قيام مبادئ إلزام أخلاقي عامة بالقياس إليها موضع شك وريبة أيضاً. [14]

ولو حدت حدود الرؤية بحدود معطيات الديانات السماوية الثلاث اليهودية، المسيحية، الإسلامية، فإنَّ أسئلة كبرى أيضاً ماتزال تطرح بقوة هنا،لعل أهمها هل من قواعد إلزام تجمع عليها الأديان السماوية تلك؟ ثم ألا من مبادئ إلزام لمن لا يدينون بتلك الديانات ولاسيما أن البحث هنا يضع الناظر أمام حقيقة أن قرابة ثلثي البشرية

13 روسو إقرار الإيمان، 89.

14 روسو إقرار الإيمان، 89.

ليسوا يهوداً ولا مسيحيين ولا مسلمين. وأن ملايين من البشر لم تسمع قط بموسى أو عيسى أو محمد، على الرغم مما يدعيه المبشرون. وسيكتشف أيضاً أن كتبها المقدسة الثلاثة. التوراة، الإنجيل، والقرآن قد كتبت بلغات يجهلها قسم كبير من الشعوب التي تعتنقها، وأن من يعرفها منهم لم يعد يتكلمها على النحو الذي كتبت فيه، فاليهود لم يعودوا يفهمون العبرية، والمسيحيون لا يفهمون العربية، والعرب المحدثون أنفسهم لم يعودوا يتكلمون لسان محمد.[15]

ومن ذلك يحكم روسو بضرورة إعادة النظر في مسألة ربط مبادئ الإلزام الخلقي ومعطيات الأديان قائلاً: "لن أتصور أن يكون ما يلتزم به كل إنسان متضمناً في كتب، أو أن يعاقب على جهل غير إرادي من ليس في متناوله هذه الكتب، ومن لا يفهمها من الناس. [ويسأل] كيف يتأتى إذن أن يحتاج الإنسان إلى معرفة واجباته؟ وأي وسائل كانت لديه ليعرف واجباته قبل أن تظهر تلك الكتب ؟ إما أنه يعرف واجباته من تلقاء ذاته، وإما أنه معفى من معرفتها". [16]

وقد أفرد روسو مساحة مهمة من رؤيته الفلسفية الأخلاقية للتدليل على القول بانتفاء إمكانية ربط مبادئ الإلزام الخلقي ومعطيات الديانة المسيحية على وجه الخصوص من بين الديانات السماوية الثلاث، وقد ذهبت آراؤه في ذلك إلى القول:

أ- إن المسيحية في المبدأ لم تتعامل في هذا الشأن مع إنسان معافى، سليم العقل والنفس والروح، يمكنه أن يرسم ويحدد السبل والكيفيات الصحيحة، التي ينبغي أن تبنى بالقياس إليها حياته الأخلاقية الفردية منها والجمعية بناء سليماً. بل مع إنسان وارث للخطيئة، ولا سبيل البتة أمامه للتخلص من وطأة ما خلفته تلك الخطيئة على مختلف جوانب حياته الاجتماعية والأخلاقية والعقلية، وذلك ما يتنافى عنده في

15 روسو، العقد الاجتماعي، ص 289- 294

16 المصدر نفسه، ص 89

الجوهر مع قول الطبيعة التي "خلقت الإنسان وفي المقام الأول خيراً[17] وجعلت في داخله لافي الخارج أمر الحكم في كيفيات تحقيق تلك الخيرية، وفي سبل تحديد ما يلزم للوفاء بذلك، وللقيام بما تقتضيه حتى واجباته الإيمانية" إن القلب الصالح هو المعبد الحقيقي للألوهية. وما من أساس حقيقة أخلاقية إلا فيه. ولا وجود لفضيلة دون ذلك. إنَّ العبادة القلبية هي أولى الواجبات"[18]

ب-إن المسيحية إذا جعلت موطن المسيحي ليس في هذا العالم. عالم الخطيئة والفساد بل في ملكوت السماء . قد جعلت الإنسان ممزقاً في واقع حياته المعيشة بين ولائين متناقضين، ولاء للسلطة الروحية وآخر للسلطة الزمنية، ولكل منهما مقتضياته وضروراته، التي يفضي به السعي للوفاء بمتطلبات أي منهما إلى نتيجة" مضادة لسلامته، ولضرورات البقاء على الوحدة الاجتماعية"[19]، و"كل ما يفصم عرى الوحدة الاجتماعية لايساوي[عنده] شروى نقير وجميع المؤسسات التي تضع الإنسان في تناقض مع ذاته لا تساوي عنده أيضاً شروى نقير"[20].

ومن ذلك يخلص روسو إلى القول: إنَّ طقوس المسيحية وتعاليم القائمين عليها تضع الإنسان بالمحصلة في دوامة من التناقضات، وأمام عدد غير محدود من الواجبات والالتزامات. والفروض، وأشكال الطاعة والفروض. التي تكشف بالمحصلة عن:

أ- أن طقوس المسيحية لاتحضر هنا بوصفها الموطن الصحيح لقيام مبادئ أخلاق يؤدي سير المرء بهديها والوفاء بما تقتضيه إلى قيام حياة اجتماعية -أخلاقية سليمة

17 روسو، المصدر نفسه، ص11

18 روسو، إقرار الايمان، ص 104

19 فولغين، فلسفة الأنوار، تر: هنريت عبودي،دار الطليعة،بيروت،ط ا،1981،ص 228

20 برهييه، أميل، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ط1، 1983 ، ص208.

فعلاً. "إن المسيحية دين روحي. وهي تعني فقط من يعيشون في السماء. صحيح أن المسيحي يتم واجبه، لكنه يعمل هذا بكثير من عدم المبالاة بعقبى عمله إن نجاحاً أو إخفاقاً، لا لوم لديه أن تسير الأمور في هذه الدنيا سيراً حسناً أو سيئاً، سواء عليه أن يكون حراً أو عبداً في هذا الوادي. إن الغرض الجوهري هو أن ينعم بالفردوس الأخروي والخضوع هو وسيلة بلوغ ذلك "[21].

ب- إن أمر الحكم في مبادئ أخلاق بالقياس إلى ذلك يغدو ضرباً من وسائل التلاعب بالألفاظ، وآثاره حمية المجادلات التي يستوي أمامها إقدام الإنسان على أداء واجبه والإحجام عنه. وتغدو اللامبالاة والزهد بأي شيء في هذه الدنيا شكلاً من أشكال الشعارات، التي تسوغ في الواقع قبول الإنسان بالذل والهوان، وبغير ذلك من المفاهيم التي لا تقتضي منه أن يكون إنساناً فاعلاً إيجابياً ممتلأً بالإيمان بذاته وبعالمه وبخالقه، بل عبداً تابعاً" إن المسيحية لا تدعو إلا إلى العبودية والتبعية وروحها مواتية للطغيان، إن المسيحيين الحقيقيين جعلوا ليكونوا عبيداً، وهم يعرفون ذلك، ولكنهم لا يبالون فقيمة هذه الحياة القصيرة قليلة في نظرهم"[22]

المنحى الثاني:

وفي هذا المنحى نجد روسو اختار ألا يغلق الآفاق حول إمكانية ربط مبادئ الأخلاق والدين، لكن لا مع معطيات الدين المسيحي أو مع معطيات أي دين آخر سماوي أو غير سماوي على نحو ما سبق. بل مع مضامين دين جديد لم يعرفه الإنسان من قبل، هو الدين الطبيعي أو الدين المدني، الذي جاهر به قدسية السافواي*

21 روسو، العقد الاجتماعي، ص180-181.

22 روسو، العقد الاجتماعي، ص 182

* القديس السافواي: هوقديس منطقة السافواي الريفية الجميلة والتي تقع شمال فرنسا، والتي يفترض أن روسو قد عاش فيها لفترة من الزمن، وقد التقى هناك هذا القديس وأثناء تنزههما معاً في حنايا الطبيعة الخلابة _على نحو مايفترض روسو _ تبادل معه الحديث عن الدين الحقيقي، وعلى لسان ذلك القديس عرض روسو آرائه في الدين الطبيعي، أودين المواطن، وقدم مضامينه، وتوقف عند كيفيات الوفاء بالالتزامات التي يقتضيها الدين الطبيعي الجديد.

في اعترافاته أو إقرار إيمانه. والذي تتناغم في مضامين عقائده وطقوسه دعوه الفكر التنويري (لإقامة الحياة بكل نشاطاتها وأوجهها الطبيعة، الإنسان، المجتمع، الوحي، الدين، العلم على أساس العقل[23] ودعوة روسو من بين فلاسفة ذلك العصر لاستحضار فعل العاطفة في الشأن الأخلاقي. ويمتزج فيها أيضاً الإيمان بإله قوي منعم بصير والإيمان بذوات فردية ومجتمع أقيم على تعاقد حر بين تلك الذوات وينبغي على كل ذات فردية منها- بموجب ذلك العقد- أن تعمل لما يحفظ سلامة العيش في كنفه، ويضمن بقاءه وازدهاره. كما ينبغي عليها أن تعمل دائماً لإعلاء كلمة الحق فيه، ولرفع الظلم والأذى عن كل فرد من أفراده، وأن تتمسك بكل ما من شأنه أن يذرع في نفوسهم وفي حياة المجتمع بذور الخير والعدل والفضيلة. وذلك على نحو ما تنص عليه بشكل واضح وصريح عقائد الدين الجديد ذاك التي يختم بها روسو عقده الاجتماعي إذ يقول: "عقائد الدين الطبيعي يجب أن تكون بسيطة قليلة العدد، وأن ينص عليها بدقة ومن غير شرح ولا تعليق. وجود الألوهية القادرة العاقلة. والحياة الأخرى ونعيم الأخيار وعقاب الأشرار وقدسية العقد الاجتماعي والقوانين" [24]

مايعني أن روسو قد حاول في مذهبة هذا أن يحل التناقض بين المعطى الديني والمعطى الأخلاقي. فمبادئ الإلزام الخلقي التي ينبغي لها أن تقوم بالقياس إلى معطيات الدين الجديد حدها هكذا ثلاثة مبادئ، تستدمج متكاملة ثنائية الروح والعقل في نظام أخلاقي منسجم. يرمي أحدها (الألوهية) إعلاء شؤون الروح وتبيان ما يترتب على الإنسان مع ذلك من واجبات إيمانية، ومن التزامات تقتضيها سلامة هذا الجانب. ويرمي الآخران "العقد الاجتماعي والقوانين" إعلاء صوت العقل وجعل أحكامه مبادئ وتشريعات تنظم سلوك الأفراد، وتنظم علاقاتهم بعضهم ببعض، كما تنظم علاقتهم بالمجتمع وبمعنى آخر إن معطيات دين قديس روسو السافواي -الدين الطبيعي- تلك

23 حنفي، د. حسن، قضايا الفكر الغربي المعاصر، مؤسسة الثقافة، الإسكندرية، ط2، عام-، ص45
24 روسو، روسو العقد الاجتماعي، . ص 181

لا ترمي البرهان على وجود الألوهية القادرة فحسب، بل ترمي إلى تبيان الكيفيات التي على نحوها ينبغي لأنوار العقل أن تحكم حياتنا الأخلاقية وتحدد عناصرها وطبائع كل مكون من مكوناته فعباداته شأن فردي ذاتي وهي عبادات مجردة من الشعائر والمعابد والهياكل، ومن الطقوس والمذابح ، يعتنقها الإنسان طواعية ودون أي وساطات، وبعيداً عن التعصب والمذاهب، وعن كل ما من شأنه أن يفسد صلاحه ويشوه خيريته، لأنها في الجوهر مشاعر اجتماعية تفرضها القوانين الناظمة والقوانين الناظمة ذاتها، هي التي تضمن أمر قيامها وسلامته. إنها باختصار عبادة لله في خدمة الأخلاق و في خدمة:

أ- كل ما من شأنه أن يعزز الرابطة الاجتماعية دون المساس بحرية الإنسان الداخلية، ولا بالحقيقة، ودون فرض أي مضمون مذهبي بالذات، لئلا يكون ذلك منبعاً لعدم التسامح أو لإفساد الخير والكيان السياسي. [25]

ب- كل ما يدفع الأبناء لأن يضعوا أنفسهم فوق الحوادث والتقلبات، ويدعوهم لعمل كل ما يقوي لديهم جانب الإلزام بكل ما له من علاقة بالآداب والواجبات ، وبكل ما يجعل كل فرد منهم بالمحصلة مواطناً صالحاً في مجتمع صالح موطنه الأرض لا السماء "هناك مجاهرة بدين مدني صرف يحق لهيئة السيادة أن تحدد مواده لا على أنها مبادئ عقيدة دينية معينة مرسومة، بل مشاعر اجتماعية، لا يمكن من دونها أن يكون المواطن صالحاً والتابع من الرعايا صادق الولاء ومن لا يتقيدون بها لا ينظر إليهم على أنهم فاسدون بل أشخاص غير مؤتلفين مع المجتمع عاجزين، عن أن يخلصوا في حب القوانين والعدالة"[26].

25 شوفالييه، جان جاك، أمهات الكتب السياسية من ميكيافيللي إلى أيامنا، ج2، ترجمة جورج طرابيشي، وزارة الثقافة، دمشق، 1980، ط1، ص295 بتصرف

26 روسو، العقد الاجتماعي، ص. 18

ثالثا: مبادئ الإلزام الخلقي والضمير:

سعى روسو في منهجه لاستخلاص الحقيقة بالدرجة الأولى بالعاطفة وبالحدس المباشر، وقد ذهبت آراؤه في ذلك إلى التأكيد بأن مصدر الإلزام الخلقي يكمن في تلك المشاعر المنبثقة من الضمير، من تلك الغريزة الملازمة للإنسان منذ ولادته التي تملك – بحسب رأيه– القدرة على إدراك الخير والشر حدسياً، من غير ما حاجة لأي خبرة سابقة، ومن غير حاجة لمعطيات الخبرة الحسية، أو لأي شكل من أشكال التأمل المنطقي. وقد جاءت مضامين ذلك تحت وجهين: يعرض الوجه الأول منها لتعريف الضمير، ولتبيان أهمية معطياته وفعالية حضورها وعمق أثرها في حياتنا الأخلاقية. ويعرض الوجه الثاني للكيفية التي على نحوها عمل روسو على تسويغ مذهبه في ذلك.

- الوجه الأول:

بخلاف مع من نظر من الفلاسفة أو من غيرهم إلى الضمير بوضعه" مجموعة من الأحكام التقويمية والوجدانات الروحية التي تستند في جوهرها، وفي ما تذهب إليه إلى شرعة من القيم ترتبط بالوضع الإنساني ذاته وبأحواله"[27]. وبخلاف أيضاً مع من رأى منهم فيه (ملكة عقلية مستقلة عن غيرها من ملكات الإنسان[28*] خطا روسو خطوة نحو تأليه الضمير ورأى فيه تلك الغريزة الربانية المنشأ التي يتفرد الإنسان بامتلاكها عن غيره من سائر الكائنات الحية الأخرى، متجاهلاً في ذلك حقيقة أن العقل لا المشاعر

27 آل شبير ألخاقاني، علم الأخلاق بين النظريـــة والتطبيـــق، دار الهـــلال، بيـــروت، ط1 ، 1987، ص97-98

28 الطويل، د.توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، لجنـــة التـــأليف والترجمـــة، القـــاهرة، ط1960،1، ص160

* للمزيد انظر فقرة معاني الضمير من مؤلف عبد الرحمن بدوي الأخلاق النظرية من ص53 حتى88

والغرائز، هو الملكة العليا التي لانظير لها البتة لدى سائر الحيوانات الأخرى. وأنه هو وحده الذي يميز الإنسان عنها، ويشعره بسموه عليها، وأنَّه بالقياس إليه يعرف بالحيوان الناطق أو العاقل.

فقد بالغ روسو كثيراً في تقدير دور الضمير، وفي تقدير حجم معطياته وفعاليتها في حياتنا الأخلاقية، إذ رأى فيه ذاك العنصر الإلهي الذي نحمله في ذواتنا، وصوت الطبيعة الذي أودعته في نفوس البشر كافة، دونما تمايز بين أحد منهم والآخر، ودون اصطفاء أو تفضيل لأحد منهم في امتلاكه على الآخر أياً كان مولدة أو نشأته وموطنة ومذهبة ولونه أو وضعة الاجتماعي. ورأى فيه العلة الأخلاقية الفاعلة التي تحفظ الإنسان من مغبة الوقوع في الخطأ والذلل، وتصونه من التوجه نحو مهاوي الضلال ومسالك الرزيلة والفساد. أو نحو غير ذلك من سبل قد يفسد السير في مناحيها نظامه الطبيعي، ويشوه مظاهر الخير والجمال عنده. وفي مجمل ما تقدم كانت مناجاته الشهيرة للضمير التي يخاطبه فيها قائلاً: "أيها الضمير، أيها الضمير، أيتها الغريزة الربانية والصوت الخالد السماوي، أيها الدليل الوطيد لموجود جاهل محدود، ولكن مع العقل والاختبار. أي قاضي الخير والشر، المعصوم من الضلال الذي يجعل الإنسان على مثال الرب!، أنت الذي تقوم عليه روعة طبيعته، وأدب أفعاله. لولا أنت ما شعرت بشيء في نفسي يرفعني فوق البهائم، لولا أنت ما شعرت بغير امتياز كئيب من الضلال بين خطأ وخطأ..."[29]

فمن منطوق مناجاته تلك نجد روسو وقد صادر على المطلوب الأول، إذ حدد مسبقاً مهمة الضمير وحجم فعاليته وحدود تأثيرها في الشأن الأخلاقي. وقد كان حريصاً كغيره من فلاسفة أخلاق العاطفة على"إرساء دعائم الحياة الأخلاقية على الشعور وعلى إيقاظ الإحساس بالقيم"[30] مبشراً في مذهبه هذا بالفردية التي تدعو كل

29 روسو، أميل، ص 523-524.

30 إبراهيم ، زكريا، المشكلة الخلقية، مكتبة مصر القاهرة، ط1، عام-، ص26

شخص إلى"أن يصرح بأن الشيء عدل وخير إذا بدا له كذلك، وترى أن الإنسان وبامتلاكه تلك الغريزة يغدو قانون نفسه ومعيار تصرفاته"[31] متخطياً في هذا حقيقة أن ما تطلعنا عليه معطيات الضمير، إنما هو فعل غريزة، وأن بإصدارنا أحكاماً قيمية في تلك المعطيات. إنما"تقوم بنشاط من أهم أوجه النشاط العقلي على الرغم من أن الواحد منا قد لا يكون منحازاً عن وعي لأية نظرية من النظريات المتعددة في القيمة.."[32]

فقد افترض مقدماً أن الضمير هو الحاكم ذو القول الفصل، الذي لا يخطئ حكمه في الخير والشر، ولا يتغيّر قوله في الأمر هذا، ولا يتأثر بتبدل المواقف والأوضاع، وهو لا يخضع لقهر الظروف والضرورات والأحوال، ولا يستتبع لأي قوة أو سلطة أياً كان شكلها أو مصدرها أو حجمها اجتماعية، سياسية، دينية. لأنه باختصار"حكم صوت الطبيعة ولأن الطبيعة لاتكذب مطلقا، وكل ما يأتي من الطبيعة يكون صادقاً"[33] بحسب رأيه الذي إذ يستحضر هنا فكرة الرواقين الذين"جعلوا مثلهم الأعلى قائماً على العيش وفقاً للطبيعة"[34] فإنه يستدعي في الآن نفسه السؤال: هل كانت الطبيعة فعلاً تبقى على ما هي ولا تتغيّر أبداً؟ ولاسيَّما أن روسو نفسه يؤكد في مستهل مؤلفه "أصل التفاوت بين الناس" "أن الإنسان لا يبقى على الحال نفسها، وأنه لا يأمل أن يرى نفسه كما صنعته الطبيعة من خلال جميع التغيّرات التي وجب أن يكون تعاقب الأزمان والأشياء قد أحدثتها في نظامه الأصلي"[35] .

31 كريسون، أندريه، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهـــاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، 1962، ط1، ص225

32 كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، ط-، عام-، ص20

33 - روسو، أميل، ص140

34 كرم، يوسف تاريخ الفلسفة اليونانية دار القلم، بيروت، طبعة جديدة، عام-، ص225

35 - روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة. عادل زعيتر، دار المعارف، القـــاهرة، ط1، 1954، ص33

وقد خلع روسو على معطيات الضمير من المصداقية مالا تفسح معها أي مجال للشك، أو الريبة في صحة مضامين ما تنطوي عليه أوفي صدقها. وبصرف النظر عما إذا كانت التجربة الأخلاقية تجربة ما هو روحي أو تجربة ما هو محسوس. وعما إذا كان ثمة من تنازع أو تعارض أو تناقض يمكن أن يقوم بين حقوق وواجبات والتزامات، أو بين مشاعر وميول واتجاهات، أو حتى بين مكونات كل منها، فقد أكد روسو أن كل ما يأتي به صوت الطبيعة ذاك هو في الواقع مبعث طمأنينة وموضع ثقة، ومن ثم حكم بضرورة الأخذ به، دونما تردد أو تساؤل فقال: "كل ما أحسه خيراً فهو خير. وكل ما أحسه شر فهو شراً، وخير الفقهاء إطلاقاً هو الضمير".[36] متجاوزاً بذلك حقيقة أن امتلاك الأحاسيس والمشاعر، أو حتى امتلاك القدرة للنظر في مضامينها شي، والحرية في التعبير الفعلي عن تلك المشاعر،ومن ثم الحكم في ما يمكن أن تؤدي إليه لجهة الإيجاب أو السلب شيء آخر. وكأنه قد وقع في دور على تسمية المناطقة لأن مؤدى مذهبه ذاك أن الأفعال الخيرة هي التي تقع موضع الرضا من الضمير، والضمير بدوره هو الغريزة الربانية التي تحددها وترتضيها.

أي إنَّ الضمير عند روسو ليس دليلاً معصوماً من الوقوع في الزلل والخطأ فحسب، ولكنه أيضاً مع كفالة حرية الإنسان في التصرف. فهو لم يحدد وظيفته على نحو ما سبق بحدود هداية الناس إلى الطريق القويم، الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه بل يلزمهم باتباع أوامره. يشير إلى مواطن الخير والحق والفضيلة والجمال ويغري الإنسان بفعلها. ويكشف عن مواطن الشر والضلال ويدفع الإنسان للابتعاد عنها. بصرف النظر عن ظرفية الموقف أو حتى عن طبيعة التساؤل في مدى مشروعية ذلك وصدقه. لأن" مجرد الشك في ذلك يحضر هنا بوصفه وحده سبباً كافياً لإقناع الإنسان بوجود تلك المشاعر في فطرة الإنسان، ولإقناعه أيضاً بأنها العلة الفاعلة. الأولى في الجانب الأخلاقي.[37]

36 - روسو، إقرار الإيمان، ص101

37 روسو، أميل، ص 96، بتصرف

الوجه الآخر:

وهنا نجد روسو المتحمس الذي يدفع بفرضيته إلى أبعد مدى، ولا يألو جهداً لتسويغ انتصاره الشديد لحضور فعل العاطفة في حياتنا الأخلاقية. فقد أكد أن تعقب الطبيعة في أفعالها ومشاعرها يفضي بالضرورة إلى سعادة الإنسان، ويجلب له اللذة والهناءة، ويجعله يستمتع بالخيرية التي طبعته عليها تلك الطبيعة ذاتها. كما يفضي وللأسباب نفسها بضرورة إطاعة قانونها ذاك. والأخذ بضرورة إرساء مشاعرها مبادئ أخلاق عامة، ينظر بالقياس إليها في طبائع الأشياء والأمور. وذلك بصرف النظر عما يمكن أن يثيره ذلك من تساؤلات. وعما إذا كان الضمير الأخلاقي هو مجرد انعكاس للضمير الجمعي، وأن أحكامه إنما هي تجسيد للقيم التي تسود في المجتمع وتفرض على الأفراد أم لا؟ وبصرف النظر عن مدى صحة القول: إنَّ الضمير واحد لدى الناس جميعاً، وأن الوجدانات تتوافق حول الموضوعات كلها. أو على العكس من ذلك أن الضمائر تصدر على الفعل الإنساني الواحد أحكاماً تختلف باختلاف أصحابها وبتغيّر زمانها ومكانها؟ وبصرف النظر أيضاً عن السؤال: هل كانت معطيات الضمير ذاك معرفة تتعلق مباشرة بالفعل نفسه لا بقانون هذا الفعل، أو تتعلق بالبواعث أو بالنتائج؟ أو حتى السؤال: هل عنه الانسياق لمعطيات العاطفة من تناقضات، مقترنة بالسؤال: هل كان العقل يوجه ذلك، ويحملنا على تتبع فائدتنا، والاختيار بين ما يؤدي بنا إلى السعادة والخير أو لا؟

وفي هذا المنحى توقف. روسو عند أمور عدة، رأى في مضامينها حججاً بينه تدلل على صحة مذهبه في ذلك أهمها:

1- أكد في البدء - مستحضراً في الشأن الأخلاقي هنا ما يماثل مقولة مواطنه ديكارت التي مفادها "أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس"[38] - أن صوت الضمير هو القاسم المشترك بين بني البشر كافة، أين كانوا؟ وكيف عاشوا؟ وبمَ آمنوا أو اعتقدوا؟ وكغيره من فلاسفة الأخلاق الذين يسلمون بوجود ماهية أخلاقية فطرية ومن ثم يشرعون للإنسانية في جملتها قواعد وأحكاماً، _ دون أن يقيموا أي وزن للظروف والمناسبات أو للأزمنة والأمكنة، للجماعات والأفراد فقد افترض أن الشعور الأخلاقي يؤلف لدى الجميع كلاً متسقاً تمثل أوامره المختلفة تطبيقات متنوعة لإلزام أخلاقي واحد. كاشفة بالمحصلة عن حقيقة أن مقولات الخير، الشر، الحق، الباطل، الأمانة، الفضيلة إنما هي موضع اتفاق كلمة البشر أجمعين، أفراداً كانوا أم جماعات. وذلك على الرغم من اختلافهم، واختلاف مواطنهم ومذاهبهم وأحوال وجودهم، وأشكال حياتهم. "أن الضمير قد أكد المبادئ نفسها عن العدل والفضيلة للبشر جميعاً في الأمكنة والأزمنة كلّها، ألقوا عيونكم على الأمم جميعاً وتصفحوا التواريخ جميعها تجدون على الرغم من الاختلاف الغريب في الطبائع ، الأفكار عينها عن العدل والصلاح في كل مكان، والمبادئ وعينها عن الخير والشر في كل مكان "[39]

وضمن السياق ذاك يدفع روسو بعيداً بأي واقعة أو سؤال قد يدعو للريبة في مصداقية معطيات الضمير، أو قد يرمي زرع بزور الشك في طبائع ما توحي به من مشاعر، أو حتى محاولة الكشف عن تناقض قد تنطوي عليه. ويجيب عن ذلك وبأسلوب أدبي مشحون بالعواطف والنفحات الوجدانية، أو على تعبير كريسون" يضع

38 ديكارت، رينيه، مقال في المنهج، تر. محمود الخضيري، المطبعة الـسلفية، لقـاهرة، ط، 1930، ص3

39 روسو، أميل، ص51

عصابة تمنعه من الرؤية ويتسلح بالفصاحة للرد"[40]. رداً يختلط فيه أمر البحث عن مواطن تستقى منها مبادئ إلزام خلقي مع فضائل الأخلاق. ويسأل: هل كان يوجد في الأرض بلد يجرم فيه من يحافظ على إيمانه، ويعاقب فيه من يتحلى بالرأفة والإحسان أو يحتقر فيه الصالح وفاعل الخير، ويكرم فيه المخادع الكاذب، ويسأل - مع ذلك - عن الباعث أو المحرك الأخلاقي الذي يجعل أكثر الناس فساداً يناقض نفسه، فيكسو اللص الفقير العاري. ويساعد القاتل من يرى سقوطهم على الأرض إغماء. ويردع الطماع الجشع عن أخذه الطعام بالقوة من طفل ضعيف، أو من شيخ عجوز[41].

وفي المنحى ذاته يستطرد روسو متسائلاً- في موضع آخر- إذا لم يوجد شيء من الأخلاق في قلب الإنسان، فمن أين يأتيه إذن هذا التهلل من أجل أعمال البطولة، وهذا الجذل حباً لذوي النفوس الكبيرة؟ ثم كيف يمكننا أن نفسر تحمس الإنسان لفضائل الصالحين وكرهه لجرائم الأشرار؟ وكيف نفهم تحرك صوت الطبيعة الخالد في نفوسنا فنهلل فرحاً وبهجة عندما نرى أو نسمع عن قيام عمل صالح، ويرتفع في أعماقنا صوت ينادي يا لروعة هذا العمل متمنين أن نكون نحن من قام به، أو على العكس من ذلك تثور حركة سخط وغضب وتذمر في قلوبنا عندما نسمع، أو نرى الظلم والقسوة والجور. [42]

2-أكد روسو أنه في واقع حياتنا الأخلاقية الفردية منها والجمعية ما يفصح بوضوح عن أن معطيات الضمير تؤلف في الجوهر وحدة حية منسجمة، تكشف مفاعيلها على الدوام عن كونه المرجع الأخلاقي، الذي ينبغي أن يسند إليه أمر القول في مختلف الشؤون الأخلاقية أياً كان حجم ذلك أو طبيعته، معللاً ذلك بالقول: "إنَّ المرء لن يجد حلاً لكل المسائل الأخلاقية الصعبة، سوى بالعمل المستوحى من

40 كريسون، أندريه، تيارات الفكر الفلسفي ، ص22

41 روسو، أصل التفاوت، ص34-35-73-79-121

42 روسو، أميل، ص517-518

الضمير، ذلك لأن تلك الغريزة الأخلاقية تظل محتفظة بطهارتها ونقاوتها في القلب كي يتسنى لها أن تحكم ، ولكي يتسنى للفرد أن يثق بها" [43]

وفي هذا الإطار يذكر روسو حوادث ومواقف عدة، أراد من خلالها أن يظهر حيوية فعل الضمير، ودوام حضوره في حياتنا الأخلاقية. - بصرف النظر عن طبائع الحكم القيمي المترتب عليها التي يختلط فيها أمر النظر في المبدأ الأخلاقي الذي ينبغي أن يحكم بالقياس إليه في الخير والشر مع تأنيب الضمير، أو لوم الإنسان لنفسه، أو ندمه على خطأ ارتكبه الذي يحضر أثره بوصفه "شعوراً انفعالياً يقتضيه الموقف الأخلاقي أمام الواجبات لأخلاقية"[44] نذكر من تلك المواقف:

_ حادثة سرقته للشال واتهامه للخادمة ماريوت التي كانت تخدم وإياه في المنزل ذاته، والتي طردت من عملها إثر ذلك، وهي بأمس الحاجة لمردوده. وموقفه الجبان عندما هرب وترك أعز أصدقائه وقد سقط صريعاً مغمياً عليه في أرض الشارع دون أن يسعفه أو يقف إلى جانبه ليتجاوز أزمته، الموقفان اللذان ظلا يؤرقانه ويثيران في نفسه الشعور بسلبية موقفه.

- وحادثة المحلف البريطاني التي تتكشف عن يقظة للضمير عالية هنا. وقد أصر هذا المحلف على تبرئة المتهم الماثل أمام هيئة المحكمة من جرم نسب إليه، وعمل كل ما بوسعه من أجل تحصيل البراءة له. لأنه يعرف وحده دون غيره من أعضاء هيئة المحكمة أن المتهم بريء وأنه-أي القاضي- هو من ارتكب الجرم وليس الشخص الماثل أمام المحكمة[45].

---

43 روسو، بدوي، عبد الرحمن، الأخلاق النظرية، ص 84ا مذكرات أعزب، ترجمة إبراهيم جزيني، دار 43

القاموس الحديث، بيروت، ط1، عام-، ص69-70

44 القاموس الحديث، بيروت، ط1، عام-، ص69-70

45 - روسو، الاعترافات، ج1، ترجمة محمد بدر الدين خليل، دار طلاس، للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 1985، ص96، ص173 : ص207

-أكد أن معطيات الضمير هي جوهر الفضائل الأخلاقية ومبدؤها، وأنها تصلح لأن تتخذ معياراً لأعمالنا وأحكامنا، ومبدأ لاستجاباتنا العاطفية، لأنها باختصار متأصلة في نفوس البشر، تستحسن الأفعال التي تكون في ذاتها خيرة، وتستهجن ما كان منها شريراً، وذلك دون أن تطلب مشورة أو تتأثر بشيء، ولذلك فقد:

أ-استبعد أي اعتبار لحضور فعل عاطفة هوجاء أو لتأثير أي هوى حار قد يخادع أو يفسد بأضاليله وأغا ليطه– في لحظة ما– مفاعيل الخيرية الطبيعية التي تنطوي عليها تلك المعطيات. أو قد يرمي إلى تغيير الأحوال، ومن ثمَّ إلى حرمان الإنسان من اللذة التي تجلبها لنفسه ممارسة الفضيلة، والقيام بالأعمال الخيرة. متجاهلاً في استبعاده ذاك كثيراً مما انطوت عليه آراؤه من تحذير، وضرورة تنبيه، لما قد تتركه العواطف العدوانية والمشاعر المتمردة الجامحة من آثار سلبية، تفضي بالمحصلة إلى تشويه المشاعر الخيرة في نفوسنا. ومتخطياً بذلك أيضاً حقيقة أن النيات الطيبة قد تتعاكس في أحيانٍ كثيرة تعاكسا تاماً، بدل أن يسودها الانسجام والتوافق، وتسير الأمور جراء ذلك إلى غير ما يرجى منها. [46]

ب-استبعد أيضاً أن يكون للمجتمع أو لأي معطى خارجي آخر أي دور في قيام تلك المعطيات، أو في تحديد كيفيات ما تنطوي عليه من مضامين، وفي ذلك يصرح قائلاً: "يقال: إنَّ الضمير وليد المبتسرات، والمجتمع، والأعراف، والعادات، ومع ذلك فإني أعلم عن تجربة وعلم أن الشعور يتبع نظام الطبيعة، وعلى الرغم من جميع قوانين الناس[47]" متناقضاً في مذهبه هذا مع الفكرة الرئيسة التي تتمحور

46 روسو، أميل، ص179-307-370-563

47 روسو، إقرار الإيمان، ص14

حولها رؤيته في كيفيات انتقال الإنسان الطبيعي إلى الحالة الاجتماعية التي تحتل قسماً مهماً من مؤلفيه "العقد الاجتماعي" و"أصل التفاوت بين الناس" التي مفادها أن المجتمع هو الشرط اللازم والكافي لكي يصبح الإنسان كائناً عاقلاً اجتماعياً وأخلاقياً حقاً، وأنه مع الحياة الاجتماعية يبدأ سلوكه بارتداء الطابع الأخلاقي، إذ يحل العدل محل الغريزة، ويعلو صوت الواجب والحق والقانون، محل اندفاعه الجسد وهيجان العاطفة "لا يوجد أدب لأفعاله مابقيت حساسيته مقصورة على شخصه، ومتى أخذت تمتد إلى خارج نفسه فازت في البداءة بالمشاعر، وبمبادئ الخير والشر التي تجعله حقاً إنساناً، وجزءاً متمما لنوعه. "[48]

رابعاً: معطيات الضمير والعقل:

في واقع الأمر، انطوت رؤية روسو الأخلاقية على القول: إنَّ للعقل هو الآخر – كما للعاطفة – حضوره الفاعل أيضاً في العملية الشاملة لبناء حياتنا الأخلاقية. وفي رسم ملامحها الرئيسة على المستويين الفردي والجمعي، النظري والعلمي، وإن اختلفت عنده مساحات وكيفيات ذلك الحضور، وتباين حجم أثره وعمقه بين أحدهما والآخر عاطفة أو عقلاً. فمشاعر الضمير وأحاسيسه، هي في الحقيقة مجرد استعداد أخلاقي داخلي لفعل الخير، والرغبة في عمل الصلاح "إن أفعال الضمير ليست أحكاماً بل هي مشاعر"[49]. أي إنَّها لا تأخذ فعل الأمر المطلق للواجب عند كانط* - الذي شبه

48 روسو، أميل ، ص317

49 روسو، إقرار الإيمان، ص46

* تقوم الأخلاق عند كانط(1924-1804)على أساس فكرة الواجب ورافعها الأساسي "افعل الواجب لأنه واجب. ومن تلك الفكرة يستنبط كانط مايسميه مصادرات العقل العملي" الحرية، خلود النفس، وجـود الله". أما قواعد الأخلاق المستنبطة من ذلك فهي:

"1- افعل دائماً بحيث تكون قاعدة فعلك صالحة عقلياً لأن تكون قاعدة كلية.

الضمير على النحو الذي يقدمه روسو بالنجوم التي تتلألأ في الصدر- وهي لاتملك في ذاتها قوة الالتزام التي يمكنها أن تترجم ماتوحي به تلك المشاعر إلى سلوك إنساني يخلع عليه بالقياس إليها قيمة أخلاقية إيجابية كانت تلك القيمة أم سلبية. بل إنها تبقى كما ذاك النوع التأملي من الأفكار نيَّات طيبة أو نفحات وجدانية وأحاسيس تستشعر سبل الخير والحق. ولا يمكن لها أن تنفذ فعلاً إلى واقع الحياة الأخلاقية ما لم يتوافر لها شرط استنباتها وقيامها فعلاً. أي أنوار العقل .

فقد سلم روسو بدور لابد أن يؤديه النشاط المعرفي في قيام الشعور الأخلاقي، وفي تحقيق تطوره وتقدمه. وعلى النحو الذي لا يتبدى معه ذلك القيام ذاته سوى "انبثاق للطبيعة الخيرة فينا"[50]. وإن صح التعبير، إخراج لمشاعر الخير والطيب والصلاح الكامنة في نفوسنا، من وجود هي فيه بالقوة إلى الوجود بالفعل"إن العدل والصلاح ليسا لفظين مجردين عن الإدراك، بل هما عاطفتان حقيقيتان للنفس المنارة بالعقل، وأنهما تقدم منظم لعواطفنا البدائية "[51]

فمجرد امتلاك الإنسان للمشاعر الخيرة، والأحاسيس الطيبة، أو حتى معرفتها لا يعكس بالضرورة واقع حياة أخلاقية فاضلة حقاً، ولا يشكل دلالات حقيقية لانتظام الذوات البشرية بهدي ما توحي به، وصولاً إلى اكتناه القيم الحميدة التي تنطوي عليها. لأن الأمر في ذلك يتطلب بالضرورة حضوراً فاعلاً لأنوار العقل. تحكم في طبائع ذلك وفي المضامين. وتقضي بضرورة الأخذ بما هو خير منها، والابتعاد عما هو

2- افعل دائماً بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص الآخرين على أنها غاية وليس أبداً على أنها مجرد وسيلة.

3- افعل دائماً بوصفك ذاتاً مستقلة. "

50 هازار بول، الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر من مونتسكيو إلى لسينغ، ج1، تعريب محمد غلاب، لجنة التأليف والترجمة القاهرة، ط-، 1987، ص148

51 روسو، أميل، ص 416

بخلاف ذلك . وهو ما أفصح عنه روسو بالقول في موضوعات عدة، تبيّن معها وكأن روسو يؤمن بمفهوم الثنائية على طريقة مواطنه ديكارت، وأن نظريته في أولوية الشعور"قد اتسمت بالازدواجية "[52] وما "أعسر أن يرجع فكر روسو إلى الوحدة[53]. فقد اشتمل إثبات تلك الأولوية على إقرار بحضور فعل العقل أيضاً "لا تعني معرفة الخير حبه، إن هذه المعرفة ليست غريزية في الإنسان لكن الضمير يحمله على حبه ندماً يعرفه عقله إياه، وإن كان وميض الحكم الأول يبهرنا ويخلط بين الأمور في نظرنا في البدء، فلننتظر انفتاح عيوننا ثانية واشتدادها، وهناك لا تلبث أن ترى الأمور نفسها على نور العقل"[54].

وضمن السياق ذاته ربط روسو بين معرفة الخبر وحبه والإرادة الحرة الفاعلة، وأكد ضرورة أن تكون تلك الإرادة هي العلة الفاعلة الموجة للسلوك البشري نحو مناحي الخير ومواطنه، ولاكتناه كل ما يحمي الطبيعة الخيرة فينا ويصونها. لأن "كل

52 جماعة سوفييت، موجز تاريخ الفلسفة، تعر توفيق سلوم، دار الجماهير ، دمشق، ط2، 1967، ص307

53 توشار، جان، تاريخ الأفكار السياسية، ج2، ترجمة ناجي الدراوشة، وزارة الثقافة ، دمشق، ط-، 1984، ص170

* *تقوم الأخلاق عند كانط(1924-1804)على أساس فكرة الواجب ورافعها الأساسي "افعل الواجب لأنه واجب. ومن تلك الفكرة يستنبط كانط مايسميه مصادرات العقل العملي" الحرية، خلود النفس، وجود الله". أما قواعد الأخلاق المستنبطة من ذلك فهي:

"1- افعل دائماً بحيث تكون قاعدة فعلك صالحة عقلياً لأن تكون قاعدة كلية.

2- افعل دائماً بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي شخص الآخرين على أنها غاية وليس أبداً على أنها مجرد وسيلة.

3- افعل دائماً بوصفك ذاتاً مستقلة. "

54 روسو، أميل، ص 523

رزيلة كل شر، إنما هو اكتساب"[55] بحسب رأيه. يعود بالأصل إلى سوء استعمالنا للاختيار الذي تعطينا إياه الطبيعة. ومن ثمَّ فإنَّ من مقتضى الضرورة العمل على تقوية كل ما يؤدي إلى انتصار ذواتنا الفردية على أهوائها وغرائزها. على سلبياتها ونقاط ضعفها أياً كان شكلها أو مصدرها، بغية الوصول إلى أسس أخلاقية سليمة تربط الحياة الأخلاقية لتلك الذوات ببنائها الجمعي، وتحدد علاقاتها وحدودها. وتربط بين عناصرها ومكوناتها. كما تربطها بغيرها من الموضوعات الأخرى ذات الصلة. وبالمحصلة تجعل الشعور بالإلزام الأخلاقي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحرية. وتجعل الإنسان وبفضل القانون الأخلاقي ذاته يكتشف في نفسه ذلك "لقد منحنا العقل لنعرف الخير والضمير لنحبه، والحرية لنختاره، والعدل لا ينفصل عن الخير، والخير نتيجة حتمية لقدرة إرادة لاتحدها حدود، كما أن كل عمل خير هو في إرادة كائن حر"[56].

النتائج:

وهكذا نصل مع رؤية روسو لمواطن قيام مبادئ الإلزام الخلقي ولكيفيات حضورها في حياتنا الأخلاقية الفردية منها والجمعية إلى القول:

_ إن انتصار روسو للعاطفة ولحضور فعلها في الشأن الأخلاقي، لم يكن في حقيقة الأمر لرغبة منه في أن يضع ملكه أو غريزة مكان ملكه أو غريزة أخرى. بقدر ما كان في مذهبه الأخلاقي هذا، إنما يتوخى إرضاء مشاعر القلب وإحياء أنسام العاطفة ونفحات الوجدان التي سلخ عنها فضل العمل، ولاسيما الأخلاقي منه، بدافع امتهان المعرفة العلمية والتمسك بأساليب التفكير التأملي. وذلك في عصر سادت فيه أنوار العقل مختلف جوانب الحياة حتى غدا ذلك العصر بالقياس إليها يعرف ويعرف باسم عصر التنوير أو عصر الأنوار.

55 بريهه أميل، تاريخ الفلسفة القرن الثامن عشر ، ص08 2

56 روسو، إقرار الإيمان، ص 64-65

_ إنَّ روسو قد حاول الجمع في مذهبه الأخلاقي ذاك بين أضداد ومتناقضات عدة، وذلك باعترافه من جهة بدور للعقل لابد فاعله هنا، لإخراج مشاعر الطيبة الطبيعية فينا إلى واقع أخلاقي معيش فعلاً. ولوضع الشرائع والسنن التي ستنظم ذلك.. وذلك على الرغم من انتقاداته الشديدة للطابع العقلاني والجاف لفلسفة عصره التي تزخرفيها مواضع كثيرة من مؤلفاته. ويتراءى فيها على أنه يتخذ من نفسه خصماً عنيداً للعقل، وعدواً لدوداً للتفكير التأملي.. وبإقراره من جهة أخرى بضرورة الركون للألوهية بوصفها مبدأ أخلاقياً ينبغي الأخذ به، لما يضمن إيمان المرء بأن السعادة الحقيقية ترتبط ارتباطاً كاملاً بالخير والفضيلة على نحو ما يبشر به الدين المدني الجديد– دين القديس-السافواي-وذلك في الوقت نفسه الذي استبعد فيه أي إمكانية لقيام مثل تلك المبادئ من معطيات الأديان، أو من مضامين شعائرها وطقوسها. سماوية كانت تلك الأديان أم طبيعية وثنية.

_ إن روسو قد حاول في مذهبه الأخلاقي هذا أن يرتفع بالإنسان إلى أعلى المستويات، وأن يضعه تحت عرش الإله، وذلك بتصوره للضمير القابع في أعماق كل ذات بشرية منا. غريزة إلهية وهبتها الطبيعة لبني البشر كافة دونما تمايز أو اصطفاء. وبإقراره بأن في تلك الغريزة المرشد، وإليها يعود أيضاً الأمر والحكم في الشأن الأخلاقي - وبالدرجة الأولى - محدداً بذلك مبدأ الإلزام الخلقي الأهم في مذهبه الأخلاقي والقاضي بضرورة استشارة ضميرنا في مختلف الظروف والأحوال، ومهما كانت الأسباب والتغيّرات.

_ إن إرجاع روسو لمعطيات الضمير الأمر في الشأن الأخلاقي قد بشر بالفردية الأخلاقية التي نرى بشكل عام أن السعادة القصوى تكمن في رضا الذات التام والناجم عن تصرفاتها. وجعل من ذلك مبدأ أخلاقياً آخر من مبادئ إلزام خلقي تجعل من الإنسان ذاته حاكم أمره، وترجع إليه وحده أمر القول في ما ينبغي عليه فعله. أو لا، وذلك دونما حاجة لأولي أمر أو لأوصياء تقضي الضرورة

الأخلاقية- اللاهوتية بوجوب الركون لآرائهم، والرجوع لإرشاداتهم والأخذ بها. وبعيداً أيضاً عن مختلف الآراء والأحكام المسبقة، وعن غير ذلك من الرؤى والمذاهب التي بشر بها الفلاسفة أو غيرهم.

_ إن انتصار روسو لفعل العاطفة قد مهد السبيل لكثير من المذاهب الأخلاقية اللاحقة التي راحت تعمل لاستخلاص الحقيقة بالحدس المباشر، وعولت للضمير شأناً كبيراً في الأمر الأخلاقي، نذكر منها على وجه الخصوص مذهباً كان في فهمه للعقل العملي الذي شبه فيه الضمير بالنجوم التي تتلألأ في صدري.

المصادر والمراجع

1- إبراهيم، زكريا، المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، القاهرة ، ط1 . عام-

2- آل شبير الخاقاني، محمد طاهر، علم الأخلاق بين النظرية والتطبيق، دار الهلال، بيروت ط1، 1987.

3- إمام، إمام عبد الفتاح، فلسفة الأخلاق، دار الثقافة ، القاهرة ، ط1، 1985.

4- بدوي، السيد محمد، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980.

5- بدوي، عبد الرحمن، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط2، 1976.

6- برهييه، إميل، تاريخ الفلسفة في القرن الثامن عشر، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1983.

7- جماعة من الأساتذة السوفييت، موجز تاريخ الفلسفة، تعريب توفيق ابراهيم سلوم، مراجعة د. خضر زكريا ، دار الجماهير العربية، دمشق، ط2، 1967 .

8- حنفي، د. حسن، قضايا الفكر العربي المعاصر، مؤسسة الثقافة الجامعة، الإسكندرية، ط2، 1975.

9- ديكارت، رينيه، مقال في المنهج، ترجمة محمود الخضيري، المطبعة السلفية، القاهرة، ط1، 1930.

10-روسو جان جاك، إقرار الإيمان، ترجمة جودت عثمان ونجيب المشكاوي، دار المعارف، القاهرة. ط-، عام-

11- روسو، جان جاك، العقد الاجتماعي، ترجمة يونس غانم، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط-، 1972.

12- روسو، جان جاك، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط-، 1954

13- روسو، جان جاك، إميل أو التربية، تر: عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط-، 1956.
14- روسو، جان جاك، مذكرات أعزب، ترجمة ابراهيم جزيني، دار القاموس، بيروت. عام-، ط-
15- روسو، جان جاك ، الاعترافات ، ج1 ترجمة محمد بدر الدين خليل ، دار طلاس للدراسات والنشر ، دمشق ، ط-، 1985.
16- شوفاليه، جان جاك، أمهات الكتب السياسية من ميكيافيلي إلى أيامنا ج2، ترجمة جورج طرابيشي، وزارة الثقافة، دمشق، ط-، 1980.
17- صبحي، أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1975.
18- الطويل، د. توفيق، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط1، 1960.
19- العوا، د. عادل، المذاهب الأخلاقية، ج1، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، ط2، 1958.
21- كريسون، أندريه، روسو حياته فلسفته، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1977.
22- كريسون، أندريه، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت ، ط-، 1962.
23- كريسون، أندريه، الأخلاق في الفلسفة الحديثة ، ترجمة د. عبد الحكيم محمود وأبو بكر زكرى، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
24 -فولغين، فلسفة الأنوار، ترجمة هنريت عبودي، دار الطليعة، بيروت،1 198،
25- كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، طبعة جديدة. 26- كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت .

27- ماركيوز، هربرت، العقل والثورة، ترجمة د. فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 1979.

28- مونتسكيو، روح الشرائع، ج1، ترجمة د. عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1954.

29- هازار، بول، الفكر الأوروبي في القرن الثمن عشر من مونتسكيو إلى لسنغ، ج1، تعريب د. محمد غلاب، مراجعة د. ابراهيم مدكور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط-، 1978.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2010/12/5.